

مُتَبَرِّرُونَ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ
المحاضرة ٩: بُولُسُ مُقَابِلَ يَعْقُوبَ
أر. سي. سبرول

فِي عَصْرِ الإِصْلَاحِ الْبُرُوتِسْتَانِيِّ، لَمْ يَسْتَسْلِمِ الْمُجْتَمَعُ الْكَاثُولِيكِيُّ وَلَمْ يَخْضَعْ لِلوُتَرِ وَالْمُصْلِحِينَ. إِذْ حَمَلُوا رَدًّا عَلَى التَّشْدِيدِ عَلَى أَنَّ التَّبَرُّرَ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ دُونَ آيَةِ إِشَارَةٍ إِلَى الْأَعْمَالِ، وَوَجَدُوا ضَالَّتَهُمْ تِلْكَ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ نَفْسِهِ، وَبِالتَّحْدِيدِ فِي رِسَالَةِ الرَّسُولِ يَعْقُوبَ. سَاقِرًا نَصًّا صَغِيرًا مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢ مِنْ رِسَالَةِ يَعْقُوبَ، وَهُوَ النَّصُّ الَّذِي تَمَّ الإِسْتِشْهَادُ بِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ حَدَثٍ لَاحِقًا فِي الدَّوْرَةِ السَّادِسَةِ مِنْ مَجْمَعِ تَرِينْتِ، فِي أَثْنَاءِ رَدِّ الْكَاثُولِيكِ عَلَى الْبُرُوتِسْتَانِثِ.

سَنَقْرَأُ مِنَ الْآيَةِ الْحَادِيَةِ وَالْعَشْرِينَ مِنَ الْأَصْحَاحِ الثَّانِي "أَلَمْ يَتَبَرَّرْ إِبْرَاهِيمُ أَبُونَا بِالْأَعْمَالِ، إِذْ قَدَّمَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ عَلَى الْمَذْبُوحِ؟ فَتَرَى أَنَّ الْإِيمَانَ عَمَلٌ مَعَ أَعْمَالِهِ، وَبِالْأَعْمَالِ أَكْمِلُ الْإِيمَانَ، وَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: "فَأَمَّنْ إِبْرَاهِيمُ بِاللَّهِ فَحَسِبَ لَهُ بَرًّا". وَدُعِيَ خَلِيلَ اللَّهِ. تَرُونَ إِذَا أَنَّهُ بِالْأَعْمَالِ يَتَبَرَّرُ الْإِنْسَانُ، لَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ".

ثُمَّ فِي الْآيَةِ ٢٥: "كَذَلِكَ رَاحِبُ الزَّانِيَةِ أَيْضًا، أَمَا تَبَرَّرْتَ بِالْأَعْمَالِ، إِذْ قَبِلْتَ الرُّسُلَ وَأَخْرَجْتَهُمْ فِي طَرِيقِ آخَرَ؟" أَمَامَنَا هُنَا إِعْلَانٌ صَرِيحٌ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِالْأَعْمَالِ لَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ. قَدْ تَطَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْوَحِيدَةَ سَتَعُدُّ الصَّرِيحَةَ الْقَاضِيَةَ لِلْعَقِيدَةِ الَّتِي قَالَ لُوتَرُ إِنَّهَا الْعَقِيدَةُ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الْكَنِيسَةُ أَوْ تَسْقُطُ.

إِذَنْ، كَيْفَ نُوقِفُ بَيْنَ مَا يُعَلِّمُهُ بُولُسُ فِي رِسَالَةِ رُومِيَّةَ وَمَا يُعَلِّمُهُ يَعْقُوبُ فِي رِسَالَتِهِ هَذِهِ؟ يَطْنُ الْبَعْضُ أَنَّهَا مُهِمَّةٌ مُسْتَحِيلَةٌ، إِذْ لَا يُمَكِّنُ التَّوْفِيقَ بَيْنَهُمَا. كَمَا يُحِيطُ جَدَلٌ تَارِيخِيٌّ حَوْلَ أَيِّ الرِّسَالَتَيْنِ دُونَتْ أَوَّلًا، رِسَالَةُ يَعْقُوبَ أَمْ رِسَالَةُ رُومِيَّةَ. رَكَزَ هَذَا السُّؤَالُ عَلَى مُحَاوَلَةِ فَهْمِ كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَنْشَأَ هَذَا الإِخْتِلَافُ فِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى. يُجَادِلُ الْبَعْضُ بِأَنَّ رِسَالَةَ رُومِيَّةَ ظَهَرَتْ قَبْلَ رِسَالَةِ يَعْقُوبَ، لِذَا كَتَبَ يَعْقُوبُ رِسَالَتَهُ لِإِنْكَارِ مَا عَلَّمَهُ بُولُسُ وَدَحْضِهِ. إِنَّمَا آخَرُونَ يَقُولُونَ: "لَا، ظَهَرَتْ رِسَالَةُ يَعْقُوبَ قَبْلَ رِسَالَةِ رُومِيَّةَ، وَكَانَ بُولُسُ يُحَاوِلُ دَحْضَ تَعَالِيمِ يَعْقُوبَ". فَتَنَحْنُ أَمَامَ جَمَاعَةٍ مُنْقَسِمَةٍ حَوْلَ هَذَا السُّؤَالِ تَارِيخِيًّا حَوْلَ مَنْ كَانَ يُحَاوِلُ دَحْضَ تَعَالِيمِ مَنْ. بَيْنَمَا التَّعَالِيمُ الْقَدِيمُ يَقُولُ لَمْ يَكُنْ أَيُّ مِنْهُمَا يُحَاوِلُ دَحْضَ الْآخَرَ، وَإِنَّ الرَّأْيَيْنِ لَيْسَا مُتَنَاقِضَيْنِ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمَا يَبْدُونَ كَذَلِكَ ظَاهِرِيًّا. فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مُهِمَّةٌ لِلْعَايَةِ إِذْ تَسْتَوْجِبُ فَلْسَفَةَ النَّظَرَةِ الثَّانِيَةِ.

يَتَفَاقَمُ جُزْءٌ مِنَ الْمُسْكَلَةِ بِسَبَبِ حَقِيقَةِ أَنَّ كُلًّا مِنْ يَعْقُوبَ وَبُولُسِ يَسْتَخْدِمَانِ الْكَلِمَةَ الْيُونَانِيَّةَ عَيْنَهَا لِلتَّبَرُّرِ (*dikaioisune*). لَكِنْ مِنَ الْجَيِّدِ أَنْ نُذْرِكَ أَنَّهُمَا يَسْتَخْدِمَانِ كَلِمَاتٍ مُخْتَلِفَةً وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّهُ كَانَتْ فِي ذَهْنَيْهِمَا أَفْكَارٌ مُخْتَلِفَةٌ. لِلْأَسْفِ، إِذَا كُنَّا مُحَاوِلِينَ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ، فَقَدْ اسْتَخْدَمَ كِلَاهُمَا الْكَلِمَةَ عَيْنَهَا. تَصِيرُ الْمَسْأَلَةُ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا عِنْدَمَا نَرَى أَنَّ كِلَيْهِمَا يَتَّخِذُ الشَّخْصَ عَيْنَهُ مِثَالًا لِإِثْبَاتِ وَجْهَتَيْ نَظَرِيَّتِهِمَا. يُبْرِزُ بُولُسُ نُقْطَةَ

أَبَوِيَّةَ إِبْرَاهِيمَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَآتَهُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالْإِيمَانِ وَحُسِبَ بَارًّا قَبْلَ أَنْ يَقُومَ بِأَيِّ عَمَلٍ؛ أَيَّ قَبْلَ أَنْ يُحْتَتَنَ وَقَبْلَ أَنْ يُقَدَّمَ إِسْحَاقَ عَلَى الْمَذْبَحِ. أَيَّ أَنْ بُولَسَ قَدْ اعْتَبَرَ إِبْرَاهِيمَ بَارًّا فِي الْأَصْحَاحِ ١٥ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ، فِي حِينِ يَعْقُوبَ لَمْ يَعْتَبِرْ إِبْرَاهِيمَ بَارًّا حَتَّى الْأَصْحَاحِ ٢٢، الْأَصْحَاحِ الَّذِي يُسَجَّلُ تَقْدِيمَهُ لِابْنِهِ إِسْحَاقَ عَلَى الْمَذْبَحِ.

وَعَلَى نَحْوِ يُعَقَّدُ الْمَسْأَلَةَ، كَانَ هَذَا أَحَدَ الْأُمُورِ الَّتِي دَفَعَتْ لُوَثَرَ إِلَى الشَّكِّ فِي قَانُونِيَّةِ رِسَالَةِ يَعْقُوبَ، عِنْدَمَا قَالَ فِي الْبِدَايَةِ إِنَّ رِسَالَةَ يَعْقُوبَ "رِسَالَةٌ مِنَ الْقَشِّ" أَوْ بِتَرْجُمَةٍ أُخْرَى "رِسَالَةٌ قَشِّ فِي صَمِيمِهَا"، وَلَكِنَّهُ تَابَ فِيمَا بَعْدَ عَنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ. وَلَكِنْ لِكُونِهِ رَفِضَ فِي مَرَحَلَةٍ مَا قَانُونِيَّةِ رِسَالَةِ يَعْقُوبَ، اسْتَعَلَّتْ جَمَاعَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ اللَّاهُوتِ هَذَا الرَّفِضَ مُحَاوِلِينَ إِظْهَارَ أَنَّ لُوَثَرَ نَفْسُهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِعِصْمَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. حَسَنًا، لُوَثَرَ كَانَ يُؤْمِنُ بِعِصْمَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. إِذْ قَالَ: "الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ لَا يُخْطِئُ أَبَدًا"، لَكِنَّهُ كَانَ مُتَشَكِّكًا مَا إِذَا كَانَ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ يَشْمَلُ رِسَالَةَ يَعْقُوبَ، لَكِنْ نُنَاقِشُ هَذَا الْأَمْرَ فِي يَوْمٍ آخَرَ.

عَلَى أَيِّ حَالٍ، نَرَى أَنَّهُ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِخْدَامِ كُلِّ مَنْ يَعْقُوبَ وَبُولَسَ لِلْكَلِمَةِ عَيْنِهَا لِلإِشَارَةِ إِلَى التَّبَرِيرِ (*dikaiosisune*)، نَجِدُ أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ تَحْمِلُ أَكْثَرَ مِنْ مَعْنَى. فَأَحَدُ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي أَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّكُمْ عَلَى دِرَايَةٍ بِهَا، نَجِدُهَا عِنْدَمَا قَالَ الرَّبُّ يَسُوعُ فِي الْأَنْجِيلِ "الْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ بَنِيهَا"، فَمِنْ الْوَاضِحِ فِي هَذَا التَّصْرِيحِ الْخَاصِّ أَنَّ الْكَلِمَةَ الْمُسْتَحْدَمَةَ هُنَا لَا تَعْنِي أَنَّ الْحِكْمَةَ تَتَّصَلُحُ مَعَ إِلَهٍ قُدُوسٍ بِرَّ مُحْتَسِبٍ تَكْتَسِبُهُ الْحِكْمَةُ بِإِنجَابِ الْأَطْفَالِ. لَا، إِنَّهُ يُوضِّحُ بِبَسَاطَةٍ أَنَّ مَا تَدَّعِي بِأَنَّهَا حِكْمَةٌ تُظْهِرُ حَقِيقَتَهَا بِثَمَرِهَا؛ مَا يُعَدُّ أَحَدَ مَبَادِيئِ الْحِكْمَةِ الَّتِي تَشْمَلُهَا أَسْفَارُ الْحِكْمَةِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. وَلِلْعَلْمِ، يَقُولُ كَثِيرُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ إِنَّهُ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْأَسْفَارِ الَّتِي تُعَدُّ أَسْفَارَ الْحِكْمَةِ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، لَا يَقْتَصِرُ الْأَمْرُ عَلَى أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ مِنَ الْمَزَامِيرِ وَالْأَمْثَالِ وَالْجَامِعَةِ وَأَيُّوبَ وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْقَائِمَةَ تَشْمَلُ رِسَالَةَ يَعْقُوبَ مِنَ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ لِأَنَّ الْعَدِيدَ مِنَ الصِّيغِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي تَجِدُهَا فِي أَسْفَارِ الْحِكْمَةِ فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ تَحْمِلُهَا أَيْضًا رِسَالَةُ يَعْقُوبَ.

وَالآنَ، بِالْمَعْنَى الَّتِي اسْتَحْدَمَهُ الرَّبُّ يَسُوعُ فِي قَوْلِهِ "الْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ بَنِيهَا"، فَهَذَا الْفِعْلُ "تَبَرَّرَتْ" يُنْبِئُ أَوْ يُظْهِرُ حَقِيقَةَ شَيْءٍ مَا. إِذَا قُلْتَ لَكُمْ بِاسْتِطَاعَتِي الرِّكْضَ لِمَسَافَةِ مِيلٍ فِي أَقَلِّ مِنْ ٤ دَقَائِقَ، فَلَا أَتَوَقَّعُ أَنْ تُصَدِّقُوا ذَلِكَ. وَسَرَّعُبُونَ فِي رُؤْيَةِ ذَلِكَ لِتُصَدِّقُوا، حَامِلِينَ سَاعَةَ تَوْقِيَّتِ فِي أَيْدِيكُمْ. فِي الْوَاقِعِ، الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي يُمَكِّنُنِي بِهَا إِثْبَاتُ تَصْرِيحِي لَكُمْ هِيَ إِظْهَارُ ذَلِكَ بِالرِّكْضِ لِمَسَافَةِ مِيلٍ فِي أَقَلِّ مِنْ ٤ دَقَائِقَ. لِذَا، إِذَا قُلْتَ لَكُمْ بِاسْتِطَاعَتِي الرِّكْضَ لِمَسَافَةِ مِيلٍ فِي أَقَلِّ مِنْ ٤ دَقَائِقَ، مَا دُمْتُ لَا أَحَاوِلُ الْقِيَامَ بِجُدْعَةٍ، مِنْ الْحِكْمَةِ أَلَّا تُصَدِّقُوا ادِّعَائِي. فِي الْوَاقِعِ، إِذَا قُلْتَ لَكُمْ "بِاسْتِطَاعَتِي الرِّكْضَ لِمَسَافَةِ مِيلٍ، وَأَنْهَيْتُ ادِّعَائِي"، لَا أَعْتَقِدُ أَنَّي سَأَسْتَطِيعُ تَبْرِيرَ هَذَا الْإِدِّعَاءِ أَيْضًا. وَعَلَيْهِ، هُنَاكَ مَعْنَى تُسْتَحْدَمُ فِيهِ كَلِمَةُ "بَرَّرَ" لِإِثْبَاتِ حَقِيقَةِ الْإِدِّعَاءِ.

عِنْدَمَا كُنْتُ أُدْرَسُ الْفَلَسَفَةَ فِي الْجَامِعَةِ، كُنْتُ أُدْرَسُ تَارِيخَ الْفَلَسَفَةِ وَكُنَّا نَسْتَعْرِضُ الْعَدِيدَ مِنَ الْفَلَسَفَةِ لِدِرَاسَةِ فِكْرِهِمْ، بَدَأَ الْأَمْرُ وَكَأَنَّ الطُّلَّابَ يَجِبُ أَنْ يَتَحَلَّوْا بِنَوْعٍ مُعَيَّنٍ مِنَ التَّفَكِيرِ لِيَتَعَامَلُوا جَيِّدًا مَعَ الْفَلَسَفَةِ. كَانَ تَفَكِيرُهُمْ يَافِعًا، وَكَانَ الطُّلَّابُ يُعَانُونَ، الطُّلَّابُ الْمُتَفَوِّقُونَ فِي دَوْرَاتٍ أُخْرَى كَانُوا يُوَاجِهُونَ مُشْكَلاتٍ فِي الْفَلَسَفَةِ. كُنْتُ أُحَاوِلُ مَنْحَهُمْ تَلْمِيحَاتٍ بَسِيْطَةً لِمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى فَهْمِ عَمَلِ فَيْلَسُوفٍ مُعَيَّنٍ فَكُنْتُ أَقُولُ: "مَا عَلَيْنِكَ الْقِيَامُ بِهِ أَوَّلًا هُوَ طَرْحُ السُّؤَالِ التَّالِيِ وَاكْتِشَافُ إِجَابَتِهِ "مَا الْمُعْضَلَةُ الَّتِي يُحَاوِلُ الْفَيْلَسُوفُ حَلَّهَا؟ وَلِمَاذَا؟" إِذَا كُنْتُ تَعْرِفُ سَبَبَ مُحَاوَلَةِ دِيكَارْتِ إِيجَادَ فِكْرَةٍ وَاضِحَةٍ وَمُمَيِّزَةٍ، يُمَكِّنُكَ اتِّبَاعُ مَنْطِقِهِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى نَتِيْجَةٍ وَاضِحَةٍ".

فَأَرِيدُ تَطْبِيقَ الْمُبْدَأِ عَيْنِهِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ الشَّائِكِ بِشَأْنِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ بُولْسٍ وَيَعْقُوبَ. لِفَهْمِ يَعْقُوبَ فِي الْأَصْحَاحِ ٢ مِنْ رِسَالَتِهِ، عَلَيْنَا طَرْحُ سُؤَالٍ: "مَا الْمُعْضَلَةُ الَّتِي يُحَاوِلُ حَلَّهَا؟ مَا السُّؤَالُ الَّذِي يُحَاوِلُ الإِجَابَةَ عَنْهُ؟" وَأَعْتَقِدُ أَنَّ إِجَابَةَ سُؤَالِي هُنَا تَبْدَأُ فِي الْآيَةِ ١٤ مِنَ الْأَصْحَاحِ ٢ إِذْ كَتَبَ يَعْقُوبُ: "مَا الْمَنْفَعَةُ يَا إِخْوَتِي إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيمَانًا وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدِرُ الإِيمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟" فَالسُّؤَالُ الَّذِي يَطْرَحُهُ يَقُولُ: "مَا فَائِدَةُ الإِيمَانِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ أَيُّ أَعْمَالٍ؟ مَا الْمَنْفَعَةُ مِنْ ذَلِكَ؟" أَيُّ هُوَ يَتَعَامَلُ مَعَ مَسْأَلَةِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَعْتَرِفُونَ بِالإِيمَانِ، لَكِنَّهُمْ لَا يُظْهِرُونَ أَيُّ ثَمَارٍ لَهُ.

فِي عَصْرِنَا هَذَا، مِائَاتُ الْأَلْفِ إِنْ لَمْ يَكُنْ الْمَلَائِيْنُ مِنَ النَّاسِ فِي أَمْرِيكَ يَعْتَرِفُونَ بِالإِيمَانِ، وَلَكِنْ لَا يُظْهِرُونَ أَبَدًا حَقِيْقَةَ الإِيمَانِ الَّذِي يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَمْتَلِكُونَهُ. هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي يُجِبُّ عَنْهُ يَعْقُوبُ. لَيْسَ السُّؤَالُ ذَاتَهُ الَّذِي طْرَحَهُ بُولْسُ. لِأَنَّ بُولْسَ سَأَلَ قَائِلًا: "كَيْفَ لِإِنْسَانٍ فَاجِرٍ الْوُقُوفُ فِي مُحَضَّرِ إِلَهٍ بَارٍّ وَقُدُوسٍ؟" فَاهْتِمَامُهُ هُوَ التَّبَرُّيرُ أَمَامَ اللَّهِ، إِذْ يَقُولُ إِنَّنَا تَبَرَّرْنَا بِالإِيمَانِ بِدُونِ أَعْمَالِ النَّامُوسِ. لَكِنْ هُنَا يَعْقُوبُ يَسْأَلُ: "مَاذَا عَمَّنْ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ لَكِنَّهُ لَا يُبْرَهُنُ عَلَى ذَلِكَ؟" يَقُولُ: "إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيمَانًا وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدِرُ الإِيمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟ إِنْ كَانَ أَخٌ وَأُخْتُ عُرْيَانَيْنِ وَمُعْتَارَيْنِ لِلْقُوْتِ الْيَوْمِيِّ، فَقَالَ لَهُمَا أَحَدُكُمُ: "امْضِيَا بِسَلَامٍ، اسْتَدْفِيَا وَاشْبَعَا"، وَلَكِنْ لَمْ تُعْطَوْهُمَا حَاجَاتِ الْجَسَدِ، فَمَا الْمَنْفَعَةُ؟" مَا الْمَنْفَعَةُ مِنْ ذَلِكَ؟ "هَكَذَا" بَعْدَ هَذَا الْمَثَلِ التَّوْضِيْحِيِّ، "هَكَذَا الإِيمَانُ أَيْضًا، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ، مَيِّتٌ فِي ذَاتِهِ". لَذَا بَعْدَ ذَلِكَ فِي النَّصِّ يُفَرِّقُ بَيْنَ الإِيمَانِ الْمَيِّتِ وَالإِيمَانِ الْحَيِّ.

عِنْدَمَا قُوْمَ لُوْثَرُ بِسَبَبِ عَقِيْدَةِ التَّبَرُّيرِ بِالإِيمَانِ وَحْدَهُ وَسُئِلَ عَنْ هَذَا الإِيمَانِ، كَمَا قُلْتُ قَبْلًا، هَلْ هَذَا يَعْنِي أَنْ تُؤْمِنَ فَحَسْبُ، وَتَحْيَا كَمَا يَخْلُو لَكَ؟ حَسَنًا، يُجِبُّ بُولْسُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ عَيْنِهِ قَائِلًا: "حَاشَا!"، وَقَالَ لُوْثَرُ بِدَوْرِهِ "التَّبَرُّيرُ بِالإِيمَانِ وَحْدَهُ وَلَكِنْ لَيْسَ بِالإِيمَانِ يَظَلُّ وَحْدَهُ". ثُمَّ وَاصَلَ لُوْثَرُ قَائِلًا إِنَّ الإِيمَانَ الَّذِي يُبَرِّرُ، إِيْمَانٌ حَيٌّ (*fides viva*)، وَكُلُّ مَنَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ حَيٌّ عِنْدَمَا يُظْهِرُ ذَاتَهُ بِثَمَرِ الطَّاعَةِ.

إِذَا أَخْبَرْتُمْ الْآنَ فِي هَذِهِ الْعُرْفَةِ أَنِّي أَمْتَعُ بِإِيْمَانٍ مُخَلِّصٍ، فَهَلْ تَصِيرُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ يَقِيْنًا لَدَيْكُمْ لِمُجَرِّدِ قَوْلِي

إِنِّي أَمْتَع بِهِ؟ هَلْ مِنْ أَحَدٍ هُنَا يَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ قَلْبِي؟ بِالطَّبَعِ لَا. فَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِتَقْيِيمِ حَقِّ ادِّعَائِي بِمَعْرِفَةِ مَا إِذَا كُنْتُ أَظْهَرُهُ فِي حَيَاتِي. فَقَدْ قَالَ الرَّبُّ يَسُوعُ لَنَا "مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ"، وَحَتَّى بِذَلِكَ بِمَقْدُورِنَا خِدَاعِ الْآخِرِينَ بِثِمَارِ عَفْنَةٍ، ثِمَارِ زَائِفَةٍ.

إِلَى مَتَى يَجِبُ أَنْ يَنْتَظِرَ اللَّهُ حَتَّى يَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ إِيمَانِي حَقِيقِيًّا؟ أَيْسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ قَلْبِي؟ نَعَمْ، لَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَى الْإِنْتِظَارِ أَسْبُوعًا أَوْ أَسْبُوعَيْنِ أَوْ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَوْ قِرَاءَةَ خَمْسَةِ أَصْحَاحَاتٍ لِيَعْرِفَ مَا إِذَا كَانَ الْإِيمَانُ الَّذِي أَعْتَرَفُ بِهِ حَقِيقِيًّا. فَلِذَا، أَعْتَقِدُ أَنَّهُ مِنَ الضَّرُورِيِّ حَلِّ هَذِهِ الْمُسْكَلَةِ الَّتِي أَمَامَنَا هُنَا، مَعَ أَنَّ كُلًّا مِنْ يَعْقُوبَ وَبُولُسَ اسْتَعَانَا بِمِثَالِ إِبْرَاهِيمَ لَطَرَحَ فَضِيئَتَهُمَا، إِلَّا أَنَّهُمَا اسْتَعَانَا بِأَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيَاتِهِ. يُوضِّحُ بُولُسُ وَجْهَةَ نَظَرِهِ بِأَنَّنا تَبَرَّرْنَا بِالْإِيمَانِ بِدُونِ أَعْمَالِ التَّامُوسِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْأَصْحَاحِ ١٥ حِينَ آمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللَّهِ، وَقَدْ حُسِبَ لَهُ ذَلِكَ بَرًّا. بَيْنَمَا يَعْقُوبُ يَطْرَحُ فَضِيئَتَهُ بِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَدْ تَبَرَّرَ بِالْأَعْمَالِ مُشِيرًا إِلَى الْأَصْحَاحِ ٢٢، سَبَعَهُ أَصْحَاحَاتٍ يَصْنَعَانِ اخْتِلَافًا فِي الْوَاقِعِ بَيْنَ الْأَصْحَاحِ ١٥ وَالْأَصْحَاحِ ٢٢، الْأَصْحَاحِ الَّذِي يُخْبِرُنَا بِذَبِيحَةِ إِسْحَاقَ عَلَى الْمَذْبَحِ.

وَيُؤَاصِلُ يَعْقُوبُ قَائِلًا إِنَّ إِبْرَاهِيمَ تَبَرَّرَ بِأَعْمَالِهِ. فَهَلْ هُوَ يَتَحَدَّثُ عَنَّا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ تَبَرَّرَ فِي عَيْنِي بِاللَّهِ؟ أَمْ يَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ تَبَرَّرَ فِي عَيْنِي الْبَشَرِ، الَّذِينَ أَمَامَهُمْ كَانَ قَدْ اعْتَرَفَ بِإِيمَانِهِ... أَمَامَ الَّذِينَ يَعْتَرِفُ الْبَشَرُ بِإِيمَانِهِمْ. مَرَّةً أُخْرَى، إِنَّ السُّؤَالَ الَّذِي يُجِيبُ عَنْهُ يَقُولُ: "إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيمَانًا وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدِرُ الْإِيمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟" وَالْجَوَابُ الَّذِي يُدَوِّي بِهِ هُنَا هُوَ "لَا". فَتَوْعُ الْإِيمَانِ الْوَحِيدِ الَّذِي يُخَلِّصُ هُوَ الْإِيمَانُ الْحَيُّ، لَا الْإِيمَانُ الْمَيِّتُ؛ فَإِنْ كَانَ إِيمَانًا حَيًّا سَيَظْهَرُ بِالتَّأَكِيدِ فِي الْأَعْمَالِ. لِذَا إِبْرَاهِيمُ يَبْرَهِنُ وَيُظْهَرُ وَيُصَادِقُ عَلَى اعْتِرَافِهِ بِالْإِيمَانِ فِي الْأَصْحَاحِ ٢٢ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ. تَمَامًا كَمَا نَعْتَرِفُ بِأَنَّ نَمْتَلِكُ إِيمَانًا، عَلَيْنَا أَنْ نُظْهَرَ هَذَا الْإِيمَانُ بِأَعْمَالِنَا. لَقَدْ أَشْرْتُ سَابِقًا إِلَى مَفْهُومِ الْغَاءِ التَّامُوسِ الَّذِي يُعَلِّمُ بِأَنَّ امْتِلَاكَ الْإِيمَانِ يُخَلِّصُ بِدُونِ الْحَاجَةِ إِلَى أَعْمَالٍ تُثْمِرُ عَنْهُ، الَّذِي بِأَكْمَلِهِ يُعَدُّ الْمَفْهُومَ الْمَسِيحِيِّ الْحَسَدِيِّ الَّذِي نُصَارِعُ مَعَهُ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا.

أَرْجُو أَنْ يُسَاعِدَكُمُ هَذَا الشَّرْحُ الْمَوْجِزُ عَلَى حَلِّ هَذِهِ الْمُسْكَلَةِ وَمَعْرِفَةِ أَنَّ الرَّسُولَيْنِ يُجِيبَانِ عَن سُؤَالَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِاسْتِخْدَامِ الْكَلِمَةِ عَيْنِهَا وَالْمِثَالِ نَفْسِهِ، وَيُظْهَرَانِ أَنَّ يَعْقُوبَ يَتَحَدَّثُ عَن تَبْرِيرِ إِبْرَاهِيمَ بِاعْتِرَافِهِ بِالْإِيمَانِ الَّذِي يُثْمِرُ أَعْمَالًا. وَإِنْ كَانَتْ رِسَالَتُهُ تُفْهَمُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَمَا مِنْ تَنَاقُضٍ. نَعَمْ أَمَامَكَ صُعُوبَةٌ قَرَارٍ، لَكِنْ مَا مِنْ تَنَاقُضٍ حَقِيقِيٍّ أَمَامَكَ.

فِي الدَّقَائِقِ الْقَلِيلَةِ الْمُتَبَقِّيَّةِ، أُرِيدُ أَنْ أَتَطَّرَقَ إِلَى سُّؤَالٍ آخَرَ يَقُولُ: "مَا الَّذِي يُثْمِرُ عَنْهُ الْإِيمَانُ الْمُخَلَّصُ بِالْمَسِيحِ؟ مِنْ أَيْنَ يَأْتِي هَذَا الْإِيمَانُ؟" رَبَّمَا هَذَا السُّؤَالُ، أَكْثَرُ مِنْ أَيِّ سُّؤَالٍ آخَرَ مَا يُجَدِّدُ جَوْهَرَ اللَّاهُوتِ الْمُصْلِحِ. إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ مَقُولَةٌ وَاحِدَةٌ تُلَخِّصُ جَوْهَرَ اللَّاهُوتِ الْمُصْلِحِ، فَهِيَ الْمَقُولَةُ الْقَصِيرَةُ "التَّجْدِيدُ يَسْبِقُ الْإِيمَانَ"، أَيْ قُوَّةُ الْإِيمَانِ، قُوَّةُ الْإِيمَانِ نَتِيجَةٌ، لَا فِعْلٌ مِنْ إِرَادَتِنَا يَتَحَقَّقُ مِنْ ذَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ ثَمَرَةٌ عَمَلِ اللَّهِ

السَيَادِيَّ الْمُتَمَثِّلِ فِي تَغْيِيرِ اتِّجَاهِ قُلُوبِنَا وَمَنْحِنَا عَطِيَّةَ الْإِيمَانِ. إِنَّهُ إِيمَانُنَا، نَحْنُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ، لَكِنَّا لَا نَخْلُقُ هَذَا الْإِيمَانَ فِيْنَا. يَنْشَأُ الْإِيمَانُ فَوْرَ الْعَمَلِ الْمُعْجِزِيِّ لِلَّهِ الرُّوحِ الْقُدُسِ إِذْ يُحْيِينَا مِنَ الْمَوْتِ الرُّوحِيِّ وَيَهْبِئُنَا عَطِيَّةَ الْإِيمَانِ دَاخِلَ قُلُوبِنَا.

عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ تَرْتِيبِ عَمَلِيَّةِ الْخَلَاصِ، فَإِنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ *ordo salutis*، نَحْنُ لَا نَتَحَدَّثُ كَثِيرًا عَنْ التَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ لِمَرَاكِحِ الْعَمَلِيَّةِ بَلْ بِالْأَحْرَى عَنْ التَّرْتِيبِ الْمُنْطِقِيِّ لَهَا. يَتَمَثَّلُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَوْلَوِيَّةِ الزَّمَنِيَّةِ وَالْأَوْلَوِيَّةِ الْمُنْطِقِيَّةِ فِي أَنَّهُ عِنْدَمَا نَقُولُ إِنَّ التَّبَرِيرَ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ لَا نَعْنِي بِهِ أَنَّ لَدَى الشَّخْصِ إِيمَانًا وَبَعْدَ ذَلِكَ بِخَمْسِ سَنَوَاتٍ يَتَبَرَّرُ. لَا، فِيهِ اللَّحْظَةُ الَّتِي نَنَالُ الْإِيمَانَ فِيهَا، يَحْسِبُكَ اللَّهُ بَارًّا وَيَسْتُرِكَ بِرْدَاءِ بَرِّ الْمَسِيحِ وَتَنْعَمُ بِكُلِّ بَرَكَاتِ التَّبَرِيرِ. فَمَا مِنْ فَاصِلِ زَمَنِيِّ فِي الْعَمَلِيَّةِ، لَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ نَقُولُ إِنَّ التَّبَرِيرَ يَتَحَقَّقُ بِالْإِيمَانِ، أَيَّ إِنَّ الْإِيمَانَ يَأْتِي مَنْطِقِيًّا قَبْلَ التَّبَرِيرِ أَوْ نَقُولُ "الْإِيمَانُ بِالتَّبَرِيرِ وَحْدَهُ". نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ التَّبَرِيرَ لَا يَسْبِقُ الْإِيمَانَ، لَكِنَّ الْإِيمَانَ يَسْبِقُ التَّبَرِيرَ مِنْ حَيْثُ تَرْتِيبُهُ الْمُنْطِقِيِّ.

إِذَا طَرَحْتُ السُّؤَالَ التَّالِيَّ عَلَى الْعَالِيَّةِ الْعُظْمَى مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ الْإِنْجِيلِيِّينَ: "أَيُّهُمَا يَأْتِي أَوَّلًا، الْإِيمَانُ أَمْ الْمِيْلَادُ الثَّانِي؟" سَيُجِيبُونَ: "الْإِيمَانُ يَأْتِي أَوَّلًا الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ لِلْإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ، ثُمَّ تُولَدُ ثَانِيَةً"، فِي حِينٍ يُجِيبُ اللَّاهُوتِيُّونَ الْمُصْلِحُونَ بِـ "لَا". عُودُوا إِلَى الْأَصْحَاحِ ٣ مِنْ الْإِنْجِيلِ يُوحَنَّا حِينَ كَانَ يَتَحَدَّثُ الرَّبُّ يَسُوعُ مَعَ نِيْقُودِيمُوسَ وَقَالَ: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنْ فَوْقَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ" فَمَا بِالْكُمِ بِدُخُولِهِ. عِنْدَمَا يَتَحَدَّثُ بُولُسُ فِي الْأَصْحَاحِ ٢ مِنْ رِسَالَةِ أَفَسَسَ عَنِ الْإِحْيَاءِ، مَتَى نُجْعَلُ أَحْيَاءَ إِلَى الْإِيمَانِ وَمَا هِيَ حَالَتُنَا حِينَهَا؟ نَكُونُ أَمْوَاتًا رُوحِيًّا، وَلِذَا نَقُولُ إِنَّ اللَّهَ الرُّوحَ الْقُدُسَ يُغَيِّرُ اتِّجَاهَ الْقَلْبِ أَوْ مِيْلَهُ، حَتَّى إِنَّ مَا كَانَ يَرْفُضُ الْإِنْسَانَ الْإِيمَانَ بِهِ قَبْلًا، يُؤْمِنُ بِهِ الْآنَ وَيَقْبَلُهُ وَيُحِبُّهُ.

إِنَّ إِحْدَى أَعْظَمِ الْعِظَاتِ الَّتِي أَلْفَاها جُونَاثَانُ إِدْوَاردُزْ كَانَتْ بِعُنْوَانِ "نُورٌ إِلَهِيٌّ وَخَارِقٌ لِلطَّبِيعَةِ" (*A Divine and Supernatural Light*)، فِيهَا تَحَدَّثَ عَنْ عَمَلِ الرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي يُغَيِّرُ قُلُوبَنَا وَاتِّجَاهَاتِهِ، لِذَلِكَ نَحْنُ لَيْسَ فَحَسْبُ نَرَى حَقَّ هَذَا الْعَمَلِ بَلْ نَتَدَوَّقُ حَلَاوَتَهُ وَنَشْعُرُ بِمَحَبَّتِهِ وَنَرَى جَمَالَهُ وَنَشْهَدُ مَجْدَهُ. فَلِذَا الْإِيمَانُ الَّذِي يُبَرِّرُ هُوَ إِيمَانٌ خُلِقَ دَاخِلَ قُلُوبِنَا كَعَطِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ الرُّوحِ الْقُدُسِ، لِذَا إِنَّ مَا كُنَّا نَرْفُضُ مُسَبِّقًا الْإِعْتِرَافَ بِهِ وَاتِّبَاعَهُ، وَمَا كُنَّا نُبْغِضُهُ فِي حَالَةِ مَوْتِنَا الرُّوحِيِّ حِينَمَا كُنَّا لَا نَزَالُ فِي الْجَسَدِ، نَقْبَلُهُ الْآنَ بِطَبِيعَةِ الرُّوحِ. فَبَقِيَّةُ الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ هِيَ حَرْبٌ بَيْنَ الْجَسَدِ، أَيَّ الْإِنْسَانَ الْعَتِيقِ، وَبَيْنَ الرُّوحِ، أَيَّ الْإِنْسَانَ الْجَدِيدِ الَّذِي يَلِدُ الْإِيمَانَ، لِذَا نَحْنُ نَتَجَدَّدُ لِكَيْ نُؤْمِنَ وَلِكَيْ نَتَبَرَّرَ.

عِنْدَمَا يُقَدِّمُ بُولُسُ قَائِمَةً مُخْتَصِرَةً لِتَرْتِيبِ الْخَلَاصِ فِي الْأَصْحَاحِ ٨ مِنْ رِسَالَةِ رُومِيَّةَ، فَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَوْلَاكِ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ ... وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ دَعَاهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ، فَهَؤُلَاءِ بَرَّرَهُمْ أَيْضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا. فَهَذَا التَّسْلُسُ، يَتَضَحُّ أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا فِي فِتْنَةِ الْمَعْرُوفِينَ

مُسَبِّقًا هُمْ أَيْضًا فِي فِتَّةِ الْمُعَيَّنِينَ مُسَبِّقًا. وَكُلُّ مَنْ هُمْ فِي فِتَّةِ الْمُعَيَّنِينَ مُسَبِّقًا، فِي فِتَّةِ الْمَدْعُوِّينَ؛ وَكُلُّ مَنْ هُمْ فِي فِتَّةِ الْمَدْعُوِّينَ هُمْ فِي فِتَّةِ الْمُبَرَّرِينَ. وَمِنَ الْوَاضِحِ هُنَا أَنَّ بُولُسَ كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنِ دَعْوَةِ لَيْسَتْ بِالْحَارِجِيَّةِ. نَحْنُ نَقْصِدُ بِالِدَعْوَةِ الْحَارِجِيَّةِ عِنْدَمَا نَكْرِزُ بِالْإِنْجِيلِ لِلنَّاسِ، إِذْ بَعْضُهُمْ يَسْتَجِيبُ، وَالْبَعْضُ الْآخَرَ يَرْفُضُهَا. بَيْنَمَا فِي الْأَصْحَاحِ ٨ مِنْ رُومِيَّةٍ يَتَحَدَّثُ بُولُسُ عَنِ دَعْوَةٍ يَكُونُ فِيهَا كُلُّ الْمَدْعُوِّينَ مُبَرَّرِينَ، وَالِدَعْوَةُ هَذِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ التَّرْتِيبِ تَسْبِقُ التَّبْرِيرَ. لِذَا فَإِنَّ الدَّعْوَةَ هِيَ مَا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّجْدِيدِ، دَعْوَةُ اللَّهِ الدَّاخِلِيَّةِ الْفَعَّالَةَ الَّتِي بِهَا نُحْضِرُ إِلَى إِيْمَانٍ، وَهُوَ إِيْمَانٌ حَيٌّ مِنْ خِلَالِهِ وَبِهِ نَتَبَرَّرُ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خَدَمَاتِ لِيْجُونِيَرِ، وَكَانَ أَحَدَ رُعَاةِ كَنِيسَةِ الْقِدِّيْسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكُلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College). وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كُنَّا لَاهُوتِيُونَ" و"أَدَهْسَنِي الْأَلَمُ".